

الفصل الأول

فكرة الكتاب

كان الاعتقاد الشائع بين علماء النفس إلى عهد قريب ، أن المراهقة فترة عصبية في النمو يشوبها القلق والتوتر والأزمات النفسية الحادة بالنسبة لجميع المراهقين . وأن هناك خصائص عامة ثابتة تميز الأفراد في هذه المرحلة من نموهم ومن بينها مثلاً تمردهم على آبائهم وثورتهم على مدرسيهم وعلى أشكال السلطة المختلفة !

وكان لكتابات « ستانلي هول » على وجه الخصوص ، التي وصف فيها المراهقة بأنها « فترة عواصف وتوتر وشدة » أكبر الأثر في إشاعة هذه النظرة المتشائمة المستسلمة إلى المراهقين ومشكلاتهم .

على أن السنوات العشرين الأخيرة قد شهدت إتساعاً في نطاق البحوث والملاحظات التي أجريت على المراهقين في حضارات وثقافات متباعدة . وقد أكدت نتائج هذه الدراسات التي قام بها بعض علماء الأجناس (من أمثال مارجريت ميد وروث بندكت) أن المراهقة أشكالاً وصوراً متعددة⁽¹⁾ ،

(1) MEAD. M. , From the South Seas. Studies of Adolescence and Sex in Primitive Societies N.Y., 1939.

BENEDICT, R., Patterns of Culture, London, 1935.

تتباين بتباين الثقافات وعادات الأقوام ومسدى المساهمة التي يسمح بها المراهقين في وظائف ومسؤوليات المجتمع الذي يعيشون فيه .. كما تنبه علماء النفس بدورهم إلى إجراء الملاحظة الدقيقة على ما بين المراهقين في السكان الواحد من فروق واختلافات ؛ فإذا بهم يخرجون من هذه الملاحظة بنتيجة تخالف الرأى القديم في اتجاهه إلى التعميم ، وتؤكد أن المراهقين في المدينة الواحدة ، بل في الحى الواحد ، بل في الشارع الواحد من هذا الحى — يختلفون من بيت إلى بيت في الصورة التي تكون عليها مراهقتهم . وأنه لا تسكاد توجد خصائص عامة ثابتة لسلوك جميع المراهقين ، وإنما هناك ظواهر سلوكية تتأثر باتجاهات العصر والثقافة المحيطة وثقافة مجموعات المراهق الخاصة ، إلى جانب عوامل أخرى يختص بمفهمها بالمراهق نفسه ويتصل بمفهمها الآخر بظروفه وعلاقته الإجتماعية .

وقد أوضحت الدراسات الأنثروبولوجية الاختلاف في الصورة العامة للمراهقة بين المجتمعات البسيطة والمجتمعات المركبة الحضارة . ففي النوع الأول من المجتمعات ، يسمح للمراهقين — بمجرد بلوغهم — بالمشاركة في مجتمع الرجال ومسؤوليات الرجال ؛ وخصوصاً أن الأعمال والحرف في هذه المجتمعات ، من زراعة إلى نسيج وغزل إلى صيد للسماك ، كلها من الحرف البسيطة التي لا يحتاج إتقانها إلى اكتساب مهارات معقدة ولا إلى تعلم طويل الأجل . والنتيجة أن المراهق لا يطول اعتماده على الغير ، وإنما يدخل مباشرة في طور من أطوار الرجولة ، فيتمكن له بذلك إشباع حاجاته

الأساسية إلى الاعتبار الاجتماعي، والاعتماد على النفس، والشعور بالمسئولية، والمساهمة الفعلية في المجتمع. ومن ناحية أخرى فإن الزواج في المجتمعات البسيطة مبكر، والإشباع الجنسي يتم على نحو طبيعي... أي أن مباشرة الرجولة، بمهامها ومسئولياتها ووظائفها المختلفة، لا يحدث فيه يسويف أو تأجيل في المجتمعات البسيطة والتي ما زالت على البداوة....

أما في المجتمعات المتحضرة فإن الصورة تختلف عن ذلك كثيراً؛ فاستقلال المراهق بالمسئولية واعتماده على نفسه — إقتصادياً واجتماعياً — يتطلب مدداً طويلة تتفاوت في المجتمعات المختلفة، والتخصص وإتقان المهن الفنية يحتاج إلى مهارات مركبة وإلى سنوات طويلة من التعاليم الثانوى والعالى، كما تحتاج الحياة في المجتمع الحديث إلى التأهب والتدريب على فنون وخبرات مختلفة، للحديث وقضاء الفراغ وإنشاء العلاقات الاجتماعية والاستمتاع بألوان الثقافة والفن والرياضة، ويتأخر كذلك طويلاً عن الزواج والمقدرة على إنشاء الأسرة.... وعلى هذا فإن المراهق لا يشبع حاجته إلى الاعتبار الاجتماعي ولا يدخل دنيا السكبار بالمسهولة التي يجدها المراهقون في المجتمعات البدائية.

هذا عن ثقافة المجتمع الأكبر — فإذا ما نقل المتأمل البصر من هذا الإطار العام إلى تفاصيل الصورة، طالقه مجموعات عديدة صغيرة ينتمى إليها المراهقون داخل المجتمع. وهي وإن كانت جميعها متأثرة بالثقافة السائدة في المجتمع، إلا أن لكل منها مع ذلك طابعه الخاص وثقافته

السياسة المصرية . . . أمثلة بمخالفات عن أسرها ، ومدرسة تفكير أخرى ، ومجموعة أقران في أجهزة أو العمل أو النادي لا تشابه إلا قليلا المجموعات المماثلة . ويتأثر طابع المراهقة بحكم الحال بهذا التباين والاختلاف . . . في الأسرة ، على سبيل المثال ، قد يحترم الأبوان سمات المراهق المتطورة في حالة ما وقد يفاسلانه على أنه ما زال طفلا في حالة أخرى . وقد يكون جو العلاقات بين المراهق والديه جواً من التقسية المتبادلة فيسهل عليه أن يستشير في مشكلات المراهقة وأحوالها وينجو بذلك من الاختلافات والتناقضات ، وعلى المكس فربما شعر بالجفوة وببعد المسافة بينه وبين والده فلا يفر من أن يتجه إلى الأقران والزملاء في كل ما يريد أن يستفسر عنه وأن ينفق آفهم ويعمل بوحسبهم .

من هنا جاءت فكرة البحث الذي يتضمنه هذا الكتاب والتي تليخص في محاولة الإجابة عن الأسئلة الآتية :

ما هي الاختلافات في الصورة العامة للمراهقة بين المدن والقرى المصرية ؟ وما هي الأنماط والأشكال المختلفة التي تأخذها مراهقة الأفراد المصريين ؟ وما العوامل والظروف في ثقافة المجتمع المصري والأسرة المصرية وغيرها من مجموعات المراهقين — التي تتحكم في هذه الأشكال والصور ؟ وإلى أي حد تتفق نتائج البحث مع النظريات الحديثة في المراهقة ؟ وما الذي يمكن أن يترتب على هذه النتائج في سياسة المراهقين وتربيتهم ؟

وقد اقتصر البحث على المذكور من المراهقين المصريين ، وذلك بحكم

ظروفه والطريقة التي أجرى بها ، والتي سنتولى الآن شرحها .

طريقة البحث وأشخاصه :

إشترك في تقديم مادة هذا البحث طلاب من معهد التربية العالي (حالياً كلية التربية) بجامعة عين شمس ، في سنة سابقة ، عند ما كان جميع طلاب هذا المعهد من البنين ... وقد عنّ للمؤلف أن يفيد من تعدد الثقافات التي يمثلها الطلاب ، واتساع رقعة بيئاتهم الاجتماعية ، واختلاف مواطنهم الأصلي والجهات التي أمضوا مصراحتهم بها بين صعيد مصر وبلاد الوجه البحري والعاظمة . . وأن يفيد أيضاً من دراستهم لموضوع « المراهقة » في جمع المعلومات والمادة اللازمة للبحث . ولا بد للأمر من بعض الإيضاح :

جميع هؤلاء الطلاب قد حصلوا على درجة الليسانس أو البكالوريوس قبل التحاقهم بالمعهد من إحدى كليات الآداب والعلوم والزراعة والتجارة ودار العلوم بالجامعات المصرية أو كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف . وفي معهد التربية العالي يمضي الطالبة سنة دراسية يدرسون فيها عدة مقررات في التربية وعلم النفس وما يتصل بهما من مواد ، ويحصلون في نهايتها على مؤهل فني يخصصهم للتدريس بالمدارس الثانوية ... ويختلف طلاب المعهد المتخرجين في كلية اللغة العربية عن المتخرجين في الكليات المعتادة في الطريق الدراسي الذي سلكوه ، والذي يتسلسل من الكتاب إلى

المدرسة الأولية فالمعهد الدينى فكلية اللغة . كذلك يختلف سير أغلب المتخرجين فى دار العلوم عن الطريق المادى الذى يبدأ بالمدرسة الابتدائية فالمدرسة الثانوية فى حالة السكيات الجامعية الأخرى . . وبهذا كانت المجموعة التى اشتركت فى تقديم مادة البحث ، ممثلة لسكافة الثقافات فى المدارس والمعاهد المصرية . وقد شملت المجموعة أيضاً من أمضوا فترة المراهقة فى قرى الوجه البحرى أو القبلى ، ومن أمضوها فى المدن أو العواصم ، ومن أمضوا شطراً منها فى القرية وشطراً فى المدينة (وأغلب هؤلاء الآخرين من أهل القرية الذين تركوا أسرهم لمواصلة تعليمهم بالمدرسة الثانوية أو بالمعهد الدينى فى المدينة) . كذلك ضمت المجموعة المسلمين والمسيحيين ، فأمكن بذلك دراسة تأثير الجو الخاص للجمعيات والأوساط الدينية التى تتغلغل فى حياة المراهقين فى مصر .

وقد يؤخذ على عينة البحث أنها عينة مختارة من حيث مستوى التعليم الذى بلغه أفرادها بوصولهم للمراهقة ، وهو التعليم الثانوى (أو ما يقابله فى خط التعليم الدينى) الذى لا يبلغه جميع المراهقين فى مصر ؛ وبذلك كانت نتائجها تصدق أكثر ما تصدق على طلبة المدارس من المراهقين المصريين . على أن دراسة نتائج البحث نفسها توجب بإمكان التعميم فيها — ذلك أن هذه النتائج إنما تشير إلى وجود عدة أنماط وصور للمراهقة فى مصر ، بل تقول بعدم المشابهة التامة بين فردين من المراهقين . فهذا الذى وضع من عينة محدودة ، لا نظن إلا أنه يزداد وضوحاً وتأكداً كيداً إذا اتسعت العينة فوضعت إلى طلبة المدارس غيرهم كذلك .

وتمّة أمر آخر يحمل التمثيل الإحصائي الدقيق أمراً غير ذى بال فيما يتعلق بهذا البحث ، وهو أننا لم نستهدف من البحث بيان النسب المختلفة لورود شكل معين من أشكال المراهقة ، بقدر ما استهدفنا تصوير الأشكال المختلفة والعوامل والظروف التي أدت إليها . فالذى يهم المربين والموجهين هو معرفة الأسباب والظروف التي جعلت مراهقة نفر من الناحية مراهقة متوافقة مشبعة ، والأسباب والظروف التي اتجهت بمراهقة نفر آخر وجهة الانحراف ، أو التردد على الأيون والمدوان على المجتمع ، أو الانطواء والإغراق فى أحلام اليقظة والاتجاهات السلبية . . وإذا كان هناك تحفظ نحب الإشارة إليه فيما يتعلق ببعض نتائج هذه الدراسة ، فهو أنها متأثرة بظروف مصر التي تسبق الثورة مباشرة (وهى فترة المراهقة لأشخاص البحث) . ولذلك فإن بعض ما يتصل بالحديث عن أثر الحزبية على المراهقين وما شابه ذلك من موضوعات ، ينطبق على مراهق الأمس أكثر من انطباقه على مراهق اليوم .

وأما الطريقة التي نفذ بها البحث ، فهي أن المؤلف رغب إلى طلبته بعد أن قُطعوا معه شوطاً فى دراسة موضوع (المراهقة) أن يكتب كل منهم فى موضوع جمل عنوانه « دراسة للمراهق (س) والظروف التي لا يست مراهقته » . . . وأفهم الطلاب بأن كلا منهم حر فى أن يكتب عن نفسه — سواء ذكر ذلك صراحة أو لم يذكره — أو أن يكتب عن شخص آخر ، بشرط أن يمت إليه بصلة قوية ، وبشرط أن يكون قد عاصر

مراهقته عن بدايتها وألم بظروفها^(١) . وأفهم الطلاب أيضاً أنهم غير مقيدون في كتاباتهم بقيد ما من قيود التبويب والتسلسل المنطقي ، وأن أهم ما يطالبون به هو شرح ظروف البيئات المختلفة التي عاش فيها المراهق (س) والتاريخ التطوري لحالته ؛ ولا مانع في سبيل ذلك من إيراد موجز لحياته فيما قبل المراهقة . . . فهذه الطريقة إذاً قريبة الشبه بما يحدث في « المقابلة الحرة » التي يترك الشخص المقابل فيها طليقاً يفيض في الحديث فيما يمن له من موضوعات ، دون مقاطعة من الفاحص ودون طلب الإجابة عن أسئلة محددة بالذات كأسئلة « الاستخبار » . وهي قريبة الشبه أيضاً بما يحدث في الميادات النفسية وفي مواقف التحليل النفسي .

وقد جاءت إجابات الطلبة — باستثناء قليل منها — منطلقة ، تامة الصراحة ، وفضاضة بالمواقف والحوادث وشرح الظروف المختلفة التي أثرت على المراهق ، أما الموامل التي شجعت على الإفاضة والانطلاق فهي أيضاً شبيهة بالموامل الماثلة في الموقف التحليلي بالميادة النفسية . . . فهناك الملاقة الوثيقة التي جمعت الباحث بطلابه ، وهي تشبه من بعض وجوهها الملاقة التي تقوم بين المعالج والمريض فتجعل الأخير يفيض إلى الأول بمكنونات نفسه وغيبات صدره . وقد أضاف إلى أثر هذه الملاقة ما اتبعه الباحث من حكايته للطلبة عن مراهقته هو وقراءته لهم بعض مذكراته في

(١) كتب ثمانية فقط من الطلاب عن أشخاص غيرهم ، وقد رؤى عند تحليل النتائج — استبعاد هذه الحالات الثماني وذلك مراعاة لشرط التجانس في البحث .

المراهقة ؛ ومثل هذا يتبعه المماحج النفسى عندما يحكى لعباده أحيانا عن بعض ما صادفه فى حياته من متاعب ، ليمزق بذلك ما قد يقوم بين الإثنين من حجاب ، ويشجع العميل على اقتحام الأسوار الداخلية فى أعماق سريره . وإلى جانب هذا فقد أفاد الطلاب من دراستهم للنواحي المختلفة فى المراهقة ، فى تذكرهم للأثر الشخصى لهذه النواحي فى حياتهم ، وفى فهمهم وتحليلهم لخبرات المراهقة .

وللطريقة التى اتبعت فى البحث — والتى يمكن تسميتها بالطريقة الإكلينيكية — بعض الميزات التى لا تتوافر فى الطرق الأخرى المألوفة كالاستخبار أو السؤال والجواب . فأما ميزتها الكبرى — وهى ما يتفق تماماً مع أغراض البحث — فهى تبيان الظروف والملايسات التى تدخلت فى تشكيل الظواهر المختلفة ، وكذلك إتاحة الدراسة الطولية التى تظهر تأثير الخبرة بالخبرات السابقة وتأثيرها على الخبرات اللاحقة ، أى دراسة التاريخ التطورى الحى لفرد من الأفراد . ومن الواضح أن هذه الدراسة لا تستبين بطريقة الاستخبار الذى يتناول قطاعاً مستعرضاً ، وفى أحسن الأحوال عدداً من القطاعات المستعرضة دون الخيوط التى تربط بينها وتوضح علاقاتها .

وأما القصور فى الطريقة فيتلخص فى أن الإجابات المختلفة لم تستوف جميع النقط التى يمكن استيفاؤها فى المراهقة ، مما يمكن أن يحيط به — دون التعمق — عدد من الاستخبارات . ونرى على الرغم من ذلك أن

هذا لم يكن بالعيب الكبير ؛ ذلك أن الموضوعات التي تطرق إليها أشخاص البحث في كتابتهم عن أنفسهم — بعد انقضاء فترة زمنية على مراقبتهم — لا بد أن تكون أكثر الموضوعات ارتباطاً بحياتهم وأرسخها أثراً في الملاحظة وإلا لما علفت هذه الموضوعات بأذهانهم مع ما كتبوا فيها من تفصيل . . . وقد لوحظ فعلاً أن موضوعات الحياة الوجدانية والاجتماعية نالت حظاً أوفر كثيراً من الحديث عن الجوانب الإدراكية ، وهذا أمر لا يخلو من دلالة في ذاته ، فإذا كانت هذه الموضوعات هي التي أصابت اهتمام المراقبين ، فهي إذاً الموضوعات الأجدد بعناية الباحثين في أساليب توجيههم وأما ما عدا ذلك من أوجه المقارنة بين الطريقة الإكلينيكية والطرق الأخرى في البحث ، فينصب على الصعوبة الكبيرة في تصنيف الإجابات وعقد المقارنات وتحليل النتائج في الطريقة الأولى .

ولقد يقوم بعض التساؤل عن مدى الدقة في كتابة الأفراد عن مراقبتهم بعد مضي أربع سنوات (في المتوسط) على انتهائهم . . . ولا يجوز إنكار أثر عامل الوقت في نسيان كثير من التفاصيل ، على أنه يجب أن يوضع مقابل ذلك أمران أولهما سبق ذكره ، وهو أن لما ذكره أشخاص البحث بعد هذه المدة دلالاته الخاصة وتأثيره الخاص على الملاحظة (وخصوصاً إذا أدخل في الاعتبار أنهم كانوا يدرسون الفواحي المختلفة في الملاحظة أثناء كتابتهم للمقالات) ، والثاني أن وصف المراقب نفسه — إبان اجتيازه لمرحلة الملاحظة — وصف أبعد ما يكون عن الموضوعية والوضوح ،

لاضطراب المراهق فيما يحاول وصفه وممانياته له واندماجه فيه . . . وليس
أعسر على الفرد المادى من أن يحلل لنفسه خبراته أثناء اجتيازها وممانياتها ،
واعلمه يكون أقدر على الحكم على سائر الملبسات والظروف التى أثرت على
هذه الخبرات بعد الانتهاء منها .

وقد كان عدد حالات البحث تسعين ، كتبوا جميعاً — باستثناء ثمانية —
طلاب — عن مراهقتهم أنفسهم ، وذكر أغلبهم ذلك صراحة وآثر
الباقون أن يلقبوا المراهق موضوع الحديث بلقبه الرمزى (س) ثم وضع
تماماً فى سياق الحديث أنهم المقصودون به . ورأينا بعد الدراسة التمهيدية
للحالات استبعدت ثلاث وعشرين حالة منها ؛ فقد استبعدت أولاً الحالات
الثماني التى كتب أصحابها عن أشخاص غيرهم وذلك لمجانسة الحالات الباقية ،
كما استبعدت حالات ثلاث لأن أصحابها — وهم يشكرون على مساهمتهم —
ينتمون إلى أقطار شقيقة ، وليسوا مقصودين بهذا البحث ، واستبعدت
الحالات الأخرى إما لأن ظروف المراهقة لم تتضح بما يلقى ضوءاً كافياً على
اتجاهاتها ، أو لمبالغة الكاتب فى ناحية واحدة (كالناحية الجنسية) جعل
منها محور الحديث كله . . . وبذلك أصبح عدد الحالات المدروسة ٦٧
حالة ، كل واحدة منها موسوعة حية حافلة بالموضوعات والحوادث التى
تستحق التأمل والدراسة ، وكل حالة منها تصلح موضوعاً لكتاب .